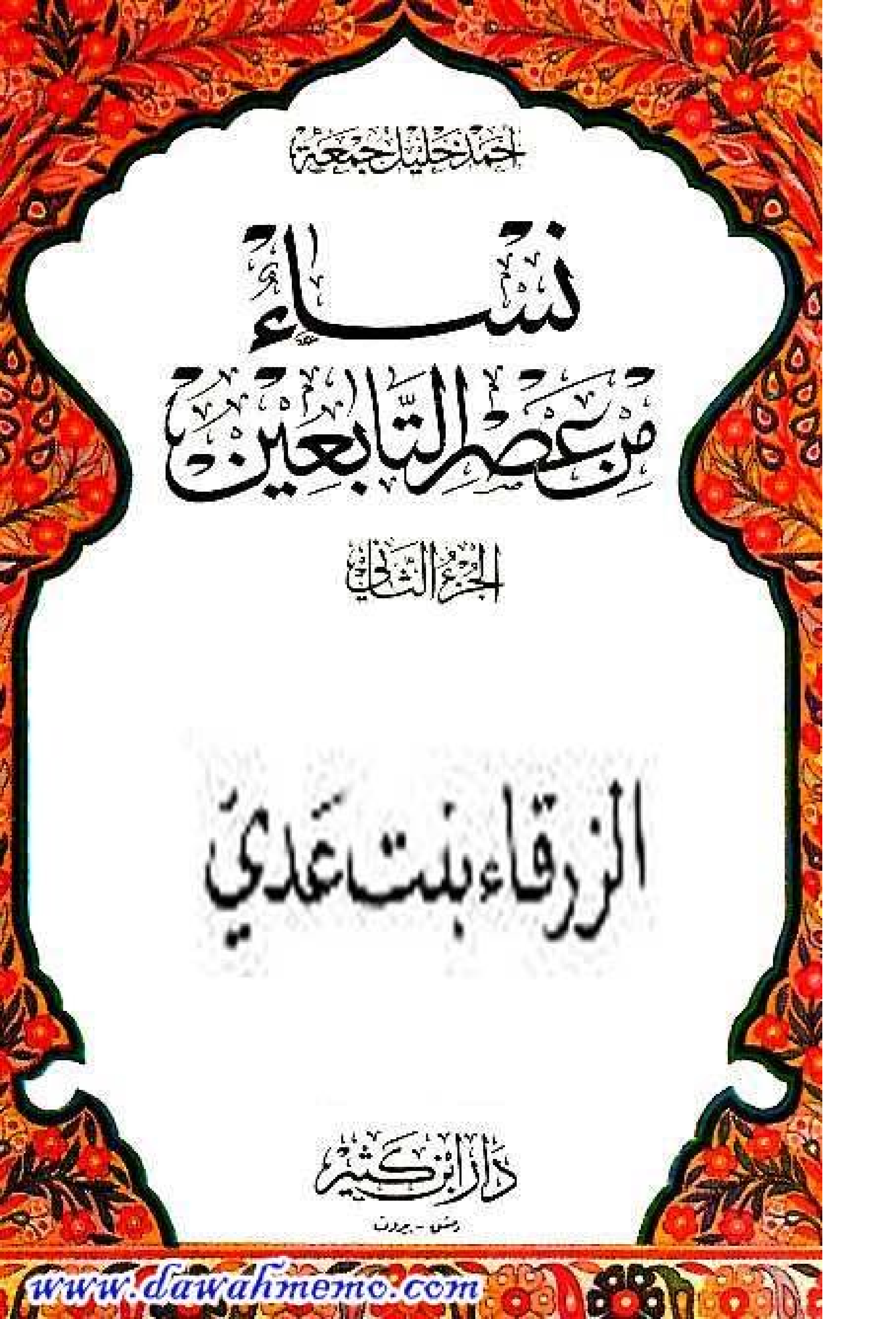


أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
الجزء الثاني
الزرقاء بنت عدي
دار ابن كثير
دمشق - بيروت
www.dawahmemo.com

(١٥)

الزرقاء بنت عديّ

* فصيحة ، بليغة ، شجاعة ، جريئة ، وفدت على معاوية بن أبي سفيان ؛ وكان بينهما حوار مشهور .

الزَّرْقَاءُ بِنْتُ عَدِي

عَامُ الجَمَاعَةِ :

* عندما يُذكر عام الجماعة[1] ، تغمر الإنسانَ مشاعر غير محدودة من السُّرور والابتهاج ، ويحسُّ كأنَّ الدُّنيا قدِ اتسعتْ من حوله ، بعد أنْ كانت تضيق به ـ أو يضيق بها ـ ، ويحسبُ أنَّ العالَمَ كلَّه كان ينتظرُ بزوغَ هلال العيد ، فغمرتْه الفرحةُ برؤيته .

* وإذا ذُكر عام الجماعةِ ، فلا بدَّ أنْ يُذكرَ معه سيِّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ ؛ لأنَّ جماعةَ المسلمين التفَّتْ حوله ، ورضيتْ به أميراً عليها ، وابتهج خيارُ المسلمين بهذه الوحدة الجامعة ، بعد تلك الفرقة المشتتةِ التي استمرت حيناً من الدَّهر تعصفُ بالنَّاس ذاتَ اليمينِ وذات الشِّمال ، وظلَّتِ الفرقةُ تعيثُ بالأهواء ، وتفرِّقُ الكلمة ، وتزرع الضَّغائن في النُّفوس ، إلى أن قيَّضَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهذه الفتنة أنْ تُدفنَ وتزول ، ومن ثَمَّ أجرى الله سبحانه الصُّلح على يدي سيِّدنا الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ ، والتأمت وحدة المسلمين ، وبهذا تحققتْ نبوءةُ رسولِ الله ﷺ في حفيده الحسن في الحديث الذي رواه أبو بكرة قال :

(١) كان عام الجماعة في سنة (٤١ هـ) .

رأيت رسول الله ﷺ على المنبرِ والحسن إلى جنبه وهو يقول :

« إنَّ ابني هذا سيِّدٌ ، ولعلَّ اللهَ أنْ يصلحَ به بين فئتين من المسلمين »[1] .

* وأصلح الله عزَّ وجلَّ بالحسنِ بين أصحاب عليّ ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ ؛ إلا أنَّ هذا الصُّلح لم يؤثِّرْ شيئاً في تلك القلوب التي أُسِّستْ على حبِّ سيّدنا عليٍّ ـ رضوان الله عليه ـ ، وكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ يعرِفُ هذا من محبّي عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ رجالاً كانوا أو نساء ، فقد روى صاحب « العقد الفريد » قال :

قدم أبو الطُّفيل على معاويةَ ، فقال له : ما بلغ من حبِّكَ لعليٍّ ؟ .

قال : حبُّ أمِّ موسى لموسى .

قال : فما بلغ من بكائِكَ عليه ؟ .

قال : بُكاء العجوز الثّكلى ، والشّيخ الرّقوب ، وإلى الله أشكو التّقصير .

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٧/٧) في فضائل أصحاب النّبيّ ﷺ : باب مناقب الحسن والحسين ؛ وفي الصُّلح : باب قول النّبيّ ﷺ للحسن : « إنَّ ابني هذا هو سيّد ... » وفي الأنبياء : باب علامات النّبوّة في الإسلام ، وفي العتق : باب قول النّبيّ ﷺ للحسن : « إنَّ ابني هذا لسيّد ... ... » والترمذي (٣٧٧٥) والنّسائي (١٠٧/٣) وأبو داود (٤٦٦٢) وأحمد (٣٨/٥ و ٤٤ و ٤٩ و ٥١) . وقد كان الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ كما وصفه الإمام الذّهبيّ : سيّداً ، وسيماً ، جميلاً ، عاقلاً ، رزيناً ، جواداً ، ممدحاً ، خيّراً ، ديّناً ، ورعاً ، محتشماً ، كبير الشأن ـ رضي الله عنه ـ .

* هذا ولم تكنِ النّساء بمعزلٍ عن المشاركة في الأحداث التي مرّت في صَدْر الإسلام وخلال العصر الرّاشدي ، وخصوصاً في خلافة عليّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ ؛ فقد كان للمرأةِ نصيبٌ في ذلك التّاريخ ، وكان لها كذلك صوتٌ مسموعٌ ورأيٌ نافذٌ في الخلافة والخلفاءِ والأمراءِ والولاة ، وعقيدةٌ تنافحُ عنها بالسّنان إنِ استطاعت أو باللسان ، وتردّدَ في الجو الاجتماعي ـ عصر ذاك ـ أصواتٌ نسائية كان لها الأثر البالغ في ميادين القتال ، والأثر البليغ في ميادين البلاغة وفي مجالسِ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ .

* وقد عرفنا عدداً من النّساء الوافداتِ على معاويةَ ، وهنّ كثيرات منهن : سودةُ بنت عمارة ،وأمُّ الخير بنت الحُريش البارقيّة ، وأمّ سِنان بنت خَيْثَمَة وغيرهنّ ممن أمتعن الأسماعَ وملأن الدُّنيا ، وشغلن النّاس ، وأخذْنَ حيّزاً من صفحات التّاريخ سجّلْنَ فيها آثارهنَّ التي خلّدت ذِكراهُنّ على مرِّ الأيام .

* واليوم نتعرفُ أخبارَ واحدة ـ من هؤلاء ـ لا تقلُّ مكانة وشهرة عمن سبقْنها ، ألا وهي الزّرقاء بنتُ عديّ بن مرّةَ الهمدانيّة الكوفيّة ، وهي من ذواتِ الشّجاعة والبسالة ، وممن خضعتْ لها البلاغة ، وانقادتْ لها مقاليدُ الكلام ، وكان لها مع معاويةَ خيرٌ دلٌ على مكنونِ فصاحتها وشجاعتها .

* * *

(١) تاريخ دمشق (ص ١٠٩) ، والأعلام (٤٤/٣) ، وفيه : الزرقاء بنت عدي بن غالب ـ بدلاً من مرة ـ .

أيُّكُمْ يَحْفَظُ كَلامَ الزَّرْقاءِ :

* كان مجلسُ معاوية بدمشق يجمع عدداً من وجوه بني أميّة ، ومنْ غيرهم ممّنْ عُرِفَ بالمكانة والأصالة والصّدارة بين النّاسِ ، فلا خيرَ فيمن صدّرته المجالسُ إذا لم يكن منْ سادةِ النّاس وأشرافهم .

* وكان معاوية يسمر مع هؤلاء الأعلام يتذاكرون ويتذكّرُون من الأخبار ـ أحياناً ـ ما مضى منها وغبر . وذات ليلة سَمرَ مع جماعةٍ من وجوه قومه ، فذكر كلاماً للزّرقاء بنت عدي الكوفيّة ، وما كانت تنثُره من حِكَمٍ بين معتركِ الصّفوف ولمعان الأسنة والسّيوف ، كانت تقول :

إنّ المصبـــاح لا يضيءُ في الشّــمس ، والكــوكب لا يبصر في القمر ؛ . . . مَن استرشَدَنا أرشدناه . . . ثم طافت بمخيّلته صورتها

(١) كان للخلفاءِ والولاة مجالسُ يجتمع إليهم فيها أهل شوراهم ، كما كانت لهم مجالس عامة يأذنون للنّاس في الدّخول عليهم . رُوي أنّ سيدنا عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ كتَبَ إلى أبي موسى الأشعريّ وهو بالبصرة قال : بلغني أنّكَ تأذنُ للنّاس جمعاً غفيراً ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فأذنْ لأهلِ الشّرف ، وأهلِ القرآن والتقوى والدِّين ، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة .
ومع أنّ هذه المجالس تُعدُّ جزءاً من الحياة السّياسية ، وتدخل ضمن رعاية مصالح النّاس ، فإنّ المواكب والوفود إليها وما كان يتخيّره هؤلاء في هذه المناسبة من الملابس والمراكب ، ونواظم الرّفد والجوائز والهِبات لهم ولقومهم ، كان مدار حديث المجتمعات والمجالس ، فضلاً عن أنّ هذه المجالس كانت تشيرُ إلى مراتب النّاس ومكانتهم في المجتمع . وإلى ذلك أشار عمر بن الخطاب في كتابه الآنف الذّكر إلى أبي موسى الأشعريّ .
وقيل : كان معاويةُ بن أبي سفيان يأذنُ للأحنف بن قيس التّميمي ، ثم لمحمّد بن الأشعث . وكان لهذه المجالس قيمتها العلميّة والأدبيّة والتاريخيّة .

وهي راكبةٌ على جملٍ أحمرَ عالٍ ، وهي تخطب في بني همدان قومها ، وكيف كانت تؤجج حماستهم ، وتحضُّهم على النّزال في يوم صفّين .

وانتبه معاوية من استغراقه الذي لم يدمْ لحظات ، وعرض ما يدور بخلدهِ على جلسائه ، وتذاكر معهم نُتفاً من كلامها ، فإذا بعددٍ من الحاضرين يحفظون كلامها ، وبعضهم لا تزالُ في جعبته أُثارةٌ من قولِ الزّرقاء يومئذ ، عندها توجّه إليهم قائلاً : أتذكرون الزرقاء بنت عدي الكوفية ؟ .

قالوا : نعم يا أمير المؤمنين .

فقال : أيُّكم يحفظُ كلامها يوم صِفّين ؟ ! .

فأجاب بعضُ الحاضرين : كلّنا نحفظه يا أمير المؤمنين ، ولا نُغادِرُ معناه ، وما كانت تقوله يوم ذاك .

وصمتَ معاوية ـ رضي الله عنه ـ وهو يتفرّس في وجوه القوم ، ثمّ قال لهم : إذن ، فما تشيرون عليَّ في أمْرِ الزّرقاء ؟ فقال بعضُهم : نشيرُ عليك بقتلها .

فقال معاوية بهدوء : بئس الذي أشرتم به عليَّ .

ثم تابع مستدركاً : أيحسُنُ بمثلي أنْ يتحدثَ النّاس عليَّ أنّي قتلتُ امرأة بعد أنْ مَلَكْتُ ، وصار الأمر إليَّ ، لا والله ، لا يكون هذا أبداً .

ولم ينتظرْ معاوية ـ رضي الله عنه ـ حتى يتنفَّس صُبْحُ تلك الليلة بل دعا كاتِبَه في الليل ، وأمره أنْ يكتب إلى واليه بالكوفة ، أنْ أوفدْ عليَّ

الزّرقاء بنت عديّ الهمدانيـة مع ثقـةٍ من محارمهـا ، وعدّةٍ من فرسـان قومها ؛ وأمره أنْ يمهّدَ لها وِطاءً ــ فراشاً ــ ليّناً ، ويسترها بستر خصيف ــ غليظ ــ ، ويوسعُ لها في النّفقةِ .

فلمـا وردَالكتـابُ إلى عامل الكوفة ، ركبَ إلى الزّرقاء ، وأقرأها كتاب معاوية ــ رضي الله عنه ــ ؛ فقالت : أمّا أنا فغيرُ زائغةٍ عن طاعةِ أمير المؤمنين ، وإنْ كان جعل المشيئة ــ الخيار ــ لي فإنّي لا أبرح عن بلدي هذا ، وإن كان حتْم الأمير ، فالطّاعة له وهو أُولى به .

فقال الوالي : الأمرُ أمْرُ أميرِ المؤمنين .

عندئذ حملّها الوالي ، وأحسنَ جهازها ، ثمّ أحسن صحبتها ــ كما أمره معاوية ــ وسيّرها إلى دمشق مقرّ الخلافة ومناط الحكم .

* * *

الزَّرْقَاءُ وَمُعَاوِيَةُ :

* لما قدمتِ الزّرقاءُ على معاويةَ بدمشقَ ، استأذنت عليه فأذن لها ، فدخلت وأفشتْ السّلام على مَنْ كان .

فقـال لها معاوية : وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته ، مرحباً بك وأهلاً ، قدمتِ خيرَ مَقْدم قَدِمَهُ وافدٌ ، كيف حالك يا خالة ؟ وكيف كان مسيرك ؟ .

قـالت : بخيرٍ يا أمير المؤمنين ، أدام الله عليك النّعمـة ، فقد كان مسيري خير مسير ، إذْ كنتُ ربيبة بيت ، أو طفلاً ممّهداً له .

قال : بذلك أمرتُهم .

وبعد أنِ اكتملَ المجلسُ ، وأخذ كلُّ واحد مكانه ، قال لها معاوية : هل تعلمين لم بعثتُ إليك يا خالة ؟ قالت : سبحان الله ــ يا أمير المؤمنين ــ وأنّى لي بعِلْمِ ما لم أعلم ، وهل يعلمُ ما في القلوب إلا الذي خلقها ؟ ! قال : بعثتُ إليك لأسألك ؛ هل أنتِ الرّاكبة الجمل الأحمر يوم صِفّين ، وأنت بين الصَّفَّيْنِ تُوقدين الحرب ، وتحضّين على القتالِ ، وتخطبينَ في النّاس ؟ فما حملك على ذلك ؟ .

قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرّأسُ ، وبُتِرَ الذّنَبُ ، ولن يعود ما ذهب ، والدّهر ذو غِيَر ــ أحداث ــ ، ومَنْ تفكّر أبصر ، والأمر يحدثُ بعده الأمر .

فقال لها معاوية : فهل تحفَظينَ كلامك يوم صِفّين ؟ .

قالت : لا واللهِ ، لا أحفظه ولقد أُنسيته ، فإنّي قد ﴿ وهنَ العظم مني واشتعلَ الرّأْس شَيباً ﴾ [مريم : ٤] ﴿ وقد بلغتُ من الكبر عتياً ﴾ [مريم : ٨] وقد ولّتْ تلكَ الأيامُ يا أمير المؤمنين .

قال : لكنّي أحفظه ، للهِ أبوك يا زرقاء ؛ لقد سمعتك يومئذ حين كنتِ تقولينَ : أيّها الناس ، ارعوا وارجعوا ، قد أصبحتم في فتنةٍ غشتكم جلابيب الظُّلم ، وحادت بكم عن قصْدِ المحجّةِ ــ الطّريق ــ فيا لها من فتنةٍ عمياءَ صمّاءَ ، لا يُسمعُ لقائلها ، ولا يُنقادُ لسائقها .

أيّها الناس : إنَّ المصباحَ لا يضيءُ في الشّمس ، والكوكب لا يبصر في القمر ، وإنّ البغل لا يسبقُ الفرس ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد .

ألا مَنْ استرشَدَنا أرشدناه ، ومَنْ سأل أخبرناه ؛ إنَّ الحقَّ كان يطلبُ ضالته فأصابها . فصبراً يا معاشر المهاجرين والأنصار ، فكأنْ قدِ اندملَ شعب الشَّتات ، والتأمتْ كلمة العدل ، وغلب الحقّ باطله ، فلا يعجلن أحدٌ فيقول : كيف ؛ وأنّى ؟ ﴿ ليقضيَ اللهُ أمْراً كانَ مفعولاً ﴾ [الأنفال : ٤٤] ، ألا وإنَّ خضابَ النّساء الحنّاء ، وخضاب الرّجال الدِّماء ، والصَّبرُ في خير الأمور عواقب .

إيْهاً ـ حسبك ـ إلى الحرب قُدماً غير ناكصينَ ، ولا متناكسينَ وهذا يومٌ له ما بعده[1] .

وتوقّفَ معاويةُ عن الكلام ، بينما كان المجلس بأكمله ، قد غَرِقَ في صَمْتٍ وهدوء يسمعُ لما يقوله ويعيده معاوية من كلام الزّرقاء ـ وهي أمامه ـ ولا تحفظه .

* * *

اذْكُري حَاجَتكِ :

* بعد أنْ سَرَدَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ خطبة الزَّرقاء وكلامها يوم صِفّين ، قال لها : يا زرقاء ، لقد شركتِ عليّاً في كلّ ما فعل ! .

فقالت : أحسنَ اللهُ بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدامَ سلامتك ، فمثلك ـ والله ـ بشّرَ بخيرٍ وسرَّ جليسه .

فقال لها متعجباً : أوقد سرَّكِ ذلك يا زرقاء ؟ .

(١) عن تاريخ دمشق (ص ١١٠ و ١١١) ، والعقد الفريد (١٠٦/٢ و ١٠٨) ، وأعلام النساء (٣٣/٢ و ٣٤) بشيء من التصرف .

قالت : نَعَمْ واللهِ لقد سرَّني قولك ، فأنّى لي بتصديقِ الفعْلِ ؟ .

فضحكَ معاوية ـ رضي الله عنه ـ وقال لها :

واللهِ يا زرقاء ، لوفاؤكم لعليٍّ بعد موته ، أعجب إليَّ من حبِّكم له في حياته .

ثم ساد الصَّمتُ في المجلس ، وألقى معاوية ـ رضي الله عنه ـ نظراتٍ فاحصة في وجوه الحاضرين ؛ فألفاها قد أُعْجِبت بفصاحة هذه المرأة البدويّة التي تتحدثُ دون خوف أو تهيّب ، لا ؛ بل تقولُ رأيها في جرأةٍ وصراحةٍ تامّةٍ . عندئذ قال لها معاوية ـ رضي الله عنه ـ : والآن ، اذكري حاجتَك يا خالة .

وأجابته بكلام موجز يجمعُ بين الفصاحة والمديح فقالت : يا أمير المؤمنين : إنّي امرأة آليتُ ألا أسأل أمراً أعنتُ عليه شيئاً .

فأعجب معاوية ـ رضي الله عنه ـ بإجابتها وسُرَّ لفصاحتها وقال : صدقتِ يا زرقاء .

ثم أمرَ لها وللذين جاؤوا معها بجوائزَ وكساء ، وأحسن عطاءها ـ خاصة ـ وردّها مكرمة بعد أنْ أقطعَها ضيعةً ـ في الكوفة ـ أغلّتْها أول سنة ستة عشر ألف درهم[1] .

* ويصمتُ التّاريخُ بعد هذه المحاورة ، فلم يعدْ ينقل لنا من أخبار الزّرقاء شيء ، إلا أنّه نعاها في سنة ستين من الهجرة وقال : إنّها توفيت ودُفنت في الكوفة .

* وبعد ، فهذه امرأة فريدة بين نساء عصر التَّابعين ، كان صوتها مسموعاً في بلاط الخلفاء ، وتركت حديثاً مدوياً في أسماع التّاريخ إلى أنْ يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها .

* رحم الله الزَّرقاء بنت عدي ، وأَنْعَمَ عليها مع الذين أَنْعَمَ عليهم .

* * *